الفهيـــــس 21–07 - 2011



قـراءة: فى كراسات التدريب (نجيب محفوظ)

.

كلما جملست أفك شفرات هذا النص النادر، تجنبت أن أسبق الدور وأنظر في أية صفحة تالية، حتى أنني أتجنب أن أسأل السكرتارية كم صفحة بقيت، بل كم كراسة علينا أن نقرأها معا. ذلك لأنني عادة أخشى تكرار النص الذي كتبه شيخنا.

من أين يأتى هذا الرجل بالجديد هكذا؟، ومن أين بكل هذه الطزاجة هكذا؟

وأيضا أجدني أخشى البعد عن النص بوفرة استطراداتي استلهاما وتداعيا.

ما أن أبدأ في "القراءة" حتى أجد كل شي، جديد، حتى لو تكرر بعض النص، فأنا أعتقد أن نجيب محفوظ لا يكرر أبدا، المبدع يقول نفس الكلمات وهو في حال مختلف، يقول "صباح الخير" اليوم، غير "صباح الخير" غدا، مع أنها نفس الكلمات، وكذا.

تذكرت قراءتى النقدية لفقرة فى أصداء السيرة، نبهنا فيها محفوظ بأهمية وسحر كلمات بسيطة لا وزن لها فى ذاتها مثل "أنت".. "فيم تفكر"، ولكن دعونا نقرأ الفقرة كلها على بعضها:

الفقرة 28 من أصداء السيرة

78 - البلاغة

قال الأستاذ " البلاغة سحر" فآمنا على قوله ورحنا

نستبق في ضرب الأمثال. ثم سرح بي الخيال إلى ماض بعيد يهيم في السذاجة. تذكرت كلمات بسيطة لا وزن لها في ذاتها مثل: أنت،.. فيم تفكر ؟... طيب، يا لك من ماكر... ولكن لسحرها الغريب الغامض جن أناس،.. وعمل آخرون بسعادة لا تصفي،..

القداءة: (من أصداء الأصداء) (نقدا)

على صغر هذه الفقرة، فإنها تطرحنا أمام قضية نقدية لأعمال محفوظ، أنا لست متأكدا من أنها نالت حقها من الدراسة، وهي قضية اللغة، وإن كنت قد قرأت أكثر عن علاقة يحيى حقى باللغة، مبدعا، وإلى درجة أقل ناقدا، فهنا ينبهنا محفوظ إلى نوع من البلاغة تستأهل الوقوف عندها، وأنها ليست أبدا، ولا أصلا ذلك البريق الذي ينبعث من ظاهر الألفاظ أو زينة الأسلوب، وهي ليست أيضا : الحكم الرصينة المختصرة التي تنطلق من مثل أو بيت شعر، بل إن الحديث بالأمثال والاستشهاد بالشعر قد يصبح ضد البلاغة بالمعني الذي تتناوله هذه الفقرة، وربما بالمعني الذي قال فيه صلاح عبد الصبور "يأتي من بعدى من لايتحدث بالأمثال".

... البلاغة التي يقدمها لنا هنا محفوظ والتي أعطى الفقرة عنوانها "البلاغة"، هي أن يجمل اللفظ - أي لفظ - معناه تماما، بل معناه الساحر متجددا، فيصبح سحرا قادرا أن يثمل به الناس في سعادة لا توصف، وأن يجن في صحنه آخرون، أية ألفاظ هذه التي تسكر وتبحن؟ ألفاظ غاية في السذاجة، هي في ذاتها كأصوات - أبعد ما تكون عن البلاغة مثل "أنت" هكذا فقط: "أنت"، أو "فيم تفكر"؟ نعم "فيم تفكر" أو "طيب" أكرر: "طيب" ثم "يالك من ماكر"،... أعني "يالك من ماكر"،

هل أدعوك- عزيزى القاري، - أن تتوقف عند هذه الألفاظ فتكررها أنت للمرة الثالثة بصوت مرتفع، ثم تترك كل لفظ (أو تعبير) منها يرن في وعيك شخصيا دون محاولة أن تكمل، ودون محاولة أن تتذكر حوله أو به أو منه شيئا، إذا فعلت ذلك "هكذا"، فسوف تعرف علاقة محفوظ بهذه الألفاظ حين تحضر في الوعى بشكل آخر، وربما تتصالح عليها وربما تطلق تداعياتك مثلما تنطلق مني بمجرد حضور نمن تدريبات محفوظ في وعيى!

دعوة:

يمكننى الآن أن أدعوك -عزيزى القارئ - أن تمارس نفس التجربة وأنت تقرأ ما تحسبه مكررا، حتى البسملة في هذا التدريب ، ولن تجد حرفا واحدا مكررا.

الحمد لله، حللتها:

يبدو أن نفس المعنى قد حضرنى وأنا فى رحاب الكعبة المباركة، فى إحدى عمراتى التى أوحت لى بثلاثة قصائد أثبتها فى ديوانى الجهول "البيت الزجاجى والثعبان" (1982) كانت

إحداها بعنوان "أنهار المسعى السبعة: حيث جاء فيها ".....

قال النهر الرابع
لو أن السعى تناغم بعد السعي إلى السعى
لرجعنا أطهر من طفل لم يولد بعد
لا نتكاثر بالعــُدُةِ والعدّ
ولعادَ المعنى
علا وجه الكلمهُ
"يهتز الكون
لو يعنى القائل "أهلاً"

النص

بسم الله الرحمن الرحيم نجيب محفوظ لكل داء دواء إلا الحماقة أعيت من يداويها ان بعد العسر يسرا ربنا ارحمنا واعف عنا تبارك الذى بيده الملك لا فرق بين أسود وأبيض الا

> نجيب محفوظ نجيب محفوظ 26 فبراير 1995

ال المحمد الرهم الكل د الكل د المحمد الرهم المحمد الله الح الله المحمد المحمد الله المحمد المحمد الله المحمد ال

القراءة:

.... الخط أجمل، والقراءة أسهل

حين قرأت بعد البسملة ...، واسمه، السطر الأول حسبت أنه يتعلق بالحالة الصحية التي امتحننا الله بها، والتي يمكن أن يوصف موقفه منها بأى وصف إلا اليأس، وتصورت أنه يصير نفسه بهذه الحكمة المختصرة، لكنني حين انتقلت إلى السطر التالى وجدت أن البيت الأول ليس إلا شطر بيت شعر اكتمل في السطر الثاني، فعرفت أن السطر الأول لم يكن "جمُّمه" مستقلة وإنما كان شطر بيت المتنبي الذي يقول:

لكل داء دواء يُسْتَطَبُّ به إلا الحماقة أعيت من بداويها

وحين ذهبت أستشير عمنا "جوجل" وجدت معظم ما جاء تحت هذا الشطر، أو البيت كله، هو مواقع طبية أغلبها وصفات شعبية، أو مفاتيج صحية، أو علاج بالرقى أو القرآن أو حتى بالأدوية والطب الحديث، وتعجبت أن يُجمع الجميع - تقريبا أن يصنفوا هذه المواقع ببعض ما يفيده "الشطر الأول" (لكل داء دواء)، دون بقية البيت، مع أن الشاعر لم يقل الشطر الأول إلا مقدمة ليكمله بالشطر الثانى، ليصف الحماقة المستعصية على العلاج، لا ليعلن أنه لكل داء دواء!!

انتقلت من هذا الاختزال السخيف في تلك المواقع الصحية إلى بعض أصل ما جاء في "الجماقة" فوجدت إلماما يوصفها من كل جوانبها، واستشهادات طريفة وسخيفه توضح أبعادها، ومترادفات تربو على الأربعين، منها ألفاظ غريبة في رسمها ونطقها حتى ضحكت وأنا أقرأها، مترادفان مثل: الأمق: الأربق، الهباجة، الهجأة، الجعبس.....إخ. عدت أفرح بلغتى الفصحى القادرة التى أضاعها أهلها حين ضاعوا، ما كل هذه الدقة والإبداع، أرجوك إقرأ أى لفظ من هذه المترادفات بصوت مرتفع، قل مثلا: فلان "أزبق" أو فلانه "هلباجة"، وسوف تعرف تلقائيا أنه "أحمق"، وأنها "محقاء".

لن أتوقف على علاقة الاستاذ بالمتنبى ومدى إعجابه به، بل وحبه له ودفاعه عن علاقته بسيف الدولة وهو يصحح لى موقفى منهما الذى لم يتصحح، وقد سبق أن تناولت ذلك من قبل.

أيضا : توقفت قليلا عند قول الخليل بن أحمد: الناس أربعة:

"رجلٌ يدري و يدري أنه يدري فذاك عالمٌ فخذوا منه

٠٠٠ و رجملُ يـدري و هو لا يـدري أنـه يـدري فـذاك نـاس ِ فـنكـروه

... و رجلٌ لا يدري و هو يدري أنه لا يدري فذاك طالبٌ فعلمهه ...

و رجل لا يدري و لا يدري أنه لا يدري فذاك "أحمقٌ" فارفضوه ..."

وحين رحت أتامل وصف الخليل للأحمق بأنه "الذى لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى"، قفز إلى عدد من رؤساء دولنا والأساتذة والعلماء المتخصصين، وقلت: ربنا يستر ألا أكون من بينهم! من أدراني؟

أما الشعر الذى أعجبنى فى وصف صعوبة تصحيح الحمق باعتباره صفة مستعصية فهو ما قاله أحد الشعراء

اتق الأحمق أن تصحبه *** انما الأحمق كالثوب الخَلقُ

كلما رقعتَ منه جانباً *** خرقته الريح وهناً فاخرقُ أو كصدع في زجاج فاحش *** هل ترى صدق زجاج يرتتقُ كحمار السوق إن أقضمتهُ *** رَمَحَ الناسَ و إن جاعَ نهقُ أو غلام السوق إن أسغبتهُ *** سرق الناسَ و إن يشبع فسقُ و إذا عاتبته كي يرعوي *** أفسد الجلس منه بالخرَقُ

صورة متكاملة شديدة الجمال وهي تصف سمة شديدة القيح

ثم أتحفنى جوجل بالإشارة إلى: كتاب كامل لابن الجوزى بعنوان "أخبار الجمقى والمغفلين، وقد ألفه بعد انتشار كتابه "أخبار الأذكياء"، واشتمل عينات من مختلف شرائح المجتمع وابن الجوزى هذا معمر علامة بالغ التدفق في التأليف، مات وهو ابن مائة وخمس عشر سنة إن صح رأى ابن قنفذ في ترجمته.

رحت أتساءل ما هو المقابل للفظ الخماقة بالعامية المصرية، "الأحمق"؟ هل هو الأهوج، الأرعن، المهفوف؟ الهايف؟ الطايش؟ الطايش؟ الطايش؟ الأف كلام؟ ولكن أيا من هذه الألفاظ لم تملأ وعيى مقارنة بحالى مع المترادفات بالفصحى.

أيضا رحت أبحث عن ما يقابل الحمق والأحمق بالإنجليزية، فلم تصلنى إلا ظاهر الصورة، أو خطوط السمة أو درجة الذكاء، وتأكدت من أن لغتى الأم، هى القادرة وحدها على توصيل مضمونها إلى مجمل وعيى،

لم يصلني أيضا أي حمق حين قرأت بعض ما يقابله بالانجليزية مثل:

Stupidity Silliness Foolishness (Wrath) Anger Idiocy etc....

ابتعدت عن هذه المعاني المطلقة وعدت أسأل نفسي بعيدا عن شعر المتنبي الذي ورد في النص:

* * *

والآن: ما علاقة نجيب محفوظ بالحمق والحماقة والأحمق

من ناحية أنا لم أرّ منه إلا عكس كل ما هو حمق بكل لغة، حتى أغاظنى ذلك، بل إننى كنت أعجب دائما من تحمله الزائد عن الحد لبعض الأصدقاء أوالزوار الذين تصورت أننى أعدهم من الحمقى الذين بحضرون مجلسه، بل أحيانا كنت أدهش من تحمله لبعض مواقفى شخصيا التى قد توصف بالتجاوز أو بالحمق، وحين كنت أتصور أنه بهذا التقبل وذاك التسامح إنما يعلو فوق الموقف، أو فوق الأحمق تغوينا أو تهوينا، كنت أكتشف خطئى المرة تلو المرة حين أتأكد أنه يجترمنا بحمقنا في داخل داخله مهما شط حمقنا الأحمق، اللهم إلا إذا حق أذى بآخر من خلال دلك، ومع ذلك فلم يكن شيخنا ينهر الأحمق صراحة، وإنما كان يلطف الجو، أو يجول الحديث، ما أمكن ذلك.

أما عن صفة الحمق عنده هو، فقل ما شئت في غيابها الظاهر، فكما قلت أنا لم أره كذلك أبدا، وتعجبت، فعندى أنه لا توجد فضيلة كاملة إلا إذا اختلطت مع نقيضها في مستوى ما بشكل ما، غياب الحمق عند الأستاذ، هكذا، بدا لي ضد هذا الفرض الذي يساعدني في مهنتي، ويعرفني على نفسي، هل يمكن أن نصف ما عند الأستاذ بأنه ضد الحمق، أو "اللاحماقة"؟ بصراحة لم أستسغ ذلك ، "اللاحماقة" -عندى - قد لا تكون فضيلة إلا أن يكون ضدها ممكن أو وارد، أي أنها لا تكون فضيلة إلا عند من يستطيع صاحبها أن يكون أحمقا، وهو يمتنع عن ذلك، هذا النوع الإرادي من الحماقة النادرة هي مكملة عن ذلك، هذا النوع الإرادي من الحماقة النادرة هي مكملة للاحماقة الغضيلة، التي تنفي اللاحماقة الدماثة المسطحة.

فهل یا تری کان نجیب محفوظ قادرا بإرادته بعض الوقت علی بعض الحماقات؟

الإجابة عندى دون حسم هى بالإيجاب، :نعم". وهذا ما يشجعنى على نفى الحماقة الحمقاء من طبعه كلية، واثباتها كفضيلة قوية إرادية طيبة، ذلك أننى في أحيان نادرة، كان يصلنى من طرف بعيد أثناء حكى بعض ذكرياته مع أحمد مظهر أو توفيق صالح، يصلنى بعض تفاصيل احتفالات الحرافيش الأصليين مثلا بعيد ميلاد أحدهم في خيمة استأجروها تحت سفح الهرم، وقد كنت أتعمد ألا أسأل عن تفاصيل أى من ذلك، مهما بلغ حب استطلاعي، فأكتفى بما يصلنى من طرف حديثهم عنه.

خلاصة القول: يبدوا أن الحماقة تصبح مزية إذا كانت مؤقتة ومقصودة لأنها تكون بمثابة نوع من التفكيك الإرادى أو شبه الإرادى دون أن يتشتكل في إبداع، وأيضا دون أن يتمادى في حماقة سلبية، وهي التي وردت في بيت المتنبي:

لكل داء دواء يستَطَبُّ به إلا الحماقة أعيت من يداويها

ابعد

لم ننته إلا من قراءة سطر واحد، بيت شعر واحد من تدريب اليوم

لو أكملنا قراءة النص فسوف ننتقل إلى موضوع آخر تماما؟

أليس من المناسب أن نتوقف عند هذه المرحلة، ونكمل -لأول مرة - بقية صفحة التدريب الأسبوع القادم؟ خاصة وقد شعرت أننا تعلمنا على يديه جرعة دسمة مستقلة، عن الجماقة، يستحسن أن نحافظ على استقلاله هكذا حتى نستوعبها بحقها؟

. . . .

. . . .

شكرا يا شيخنا

تظل تعلمنا حتى لا ننسى فضلك، مع أنه احتمال غير وارد.

```
. . . . . . . .
```

الفقرات التالية في نفس الصفحة تقول: إن بعد العسر يسرا ربنا ارحمنا واعف عنا تبارك الذي بيده الملك

أستأذنكم أن نتعاطاها جميعا في الأسبوع القادم

لا فرق بن أسود وأبيض الا بالتقوى